الفصل التاسع

نظم وعادات عربية قديمة

- من عادات الأقدمين صيفاً.
- نظم الحكم فى الدولة الفاطمية.
- من قصور سلاطين بنى عثمان قواعد وأصول.
- الزلع، المدفونة فى باطن أرض المساجد والمنازل.
- مهن وحرف لها مكانتها العظيمة.
- زواج الخليج على البركة.
- ..... ونظم أخرى.

obeikandl.com

obeikandl.com

• من عادات الأقدمين تجاه فصل الصيف:

كانت هنالك وسائل عديدة تتخذ قديمًا للتخفف من حرارة الصيف، ومن أبسط تلك الوسائل مراوح اليد التى كانوا يتأنقون فى صنعها حتى تكون غاية فى الأناقة والجمال، وكانت تطرز عليها بعض الرسوم والزخارف الملونة، والعبارات الرقيقة، وأبيات الشعر المختارة.

ومما يذكر أن بنى أمية اقتدوا بما كان يفعله الأكاسرة عندما كان يطين لهم سقف بيت فى كل يوم صائف، وكان يُؤْتَى بأطباق تصنع من أغصان الشجر فتوضع حول البيت، وفى ثناياها قطع الثلج الكبار تلطيفًا للجو(١).

وفى عهد الخليفة العباسى «المنصور» ابتكر وزيره وسيلة جديدة لتلطيف الجو، بوضع أنسجة سميكة مبللة بالماء المعطر على هيكل ذى ثلاث سيقان، فلا يكاد يتخللها الهواء حتى يرق.

وانتشر كذلك استخدام مراوح الخيش الكبيرة التى توضع فى مكان بحيث تكون أشبه بالشراع للسفينة، وتُعلق فى سقف البيت، ويشد بها حبل وتدار وتُبَلُّ بالماءَ، أو ترش بماء الورد، فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جذبها بحبل فتذهب بطول البيت وتجىء، فيهب على الرجل منها نسيم طيب الريح، ويكون باردًا، وتلك المروحة استحدثت فى زمن بنى العباس، وكان

(١) لطائف المعارف للثعالبى (بتصرف).

سبب حدوثها أن هارون الرشيد دخل يومًا على أخته «علية بنت المهدى» فوجدها قد صبغت ثوبًا من زعفران وصندل، ونشرته على حبل ليجف، فجلس هارون الرشيد قريبًا من ذلك، فجعلت الريح تمر على الثوب فتحمل منه ريحًا بليلة عطرة، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه، فأمر أن يصنع له فى محله مثله(١).

وكان مما يراعى فى إقامة الدور أن تكون من حيث مواقعها وتصميماتها قادرة على دفع حرارة الشمس عن داخلها، وتلقى النسمات المنعشة من مهابها، والاحتفاظ بجو ملائم فى الصيف، وخاصة فى السراديب الرطبة التى كانت تقام تحت الأرض.

. . . . وبلغ من براعتهم فى تكييف الجو ـ وخاصة فى الأندلس ـ أنهم كانوا يكلفون البنائين بأن يضعوا داخل الجدران قنوات طويلة متوازية من الفخار، تبدأ من أعلى البناء حتى أسفله، ويملئونها بالماء الساخن شتاء، وبالماء المثلج فى الصيف، مع تجديده من وقت إلى آخر، كوسيلة للتدفئة أو التبريد.

. . . . ويذكر أيضًا أنه كان بحمام دار «جمال الملك» وزير الخليفة «المسترشد بالله العباسى» «مستراح» فيه أنبوب إذا أداره الشخص يمينًا خرج منه ماء بادر، وإذا أداره شمالاً خرج منه ماء ساخن(٢).

وقد عنى الخلفاء والأمراء وغيرهم من الأغنياء بجلب الثلج وتخزينه؛ لتبريد شرابهم به طوال الصيف.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) مسامرة الضيف بمطارحة الشتاء والصيف: ابن خوقير الكتبى (بتصرف).

ويروى أنه لما ولى «ابن الفرات» الوزارة ـ وكان اليوم الذى خلع عليه فيه شديد الحرارة ـ استهلك فيما قدمه من الشراب للمهنئين من زواره ١٤٠ ألف رطل من الثلج فى يوم وليلة.

وكانت المياه المثلجة توضع فى جرار مختلفة الأحجام يسمونها «المزملات»؛ لأنها كانت «تزمل» أى تُكسى بشىء من النسيج السميك المبطن بالتبن للاحتفاظ ببرودة مائها، وكانت تركب على الكبار منها صنابير من الفضة أو الرصاص.

وكان بعض الناس الذين يضطرون للبقاء فى مواطنهم فى الصيف يتخذون لهم مصايف داخلية فيما يتخللها أو يحيط بها من المزارع والبساتين وشواطئ البرك والأنهار.

وكان سكان القاهرة يقضون أوقاتًا ممتعة على شاطئ النيل، وعلى ضفاف البرك العديدة التى كانت تنتشر فيها.

وكان بعض السراة فى المدن العربية الكبرى يصطنعون فى حدائق قصورهم بركًا خاصة تشبه حمامات السباحة فى زمننا هذا... وكان «الحجاج بن يوسف» يجتمع بزواره صيفًا، وهو جالس على فراش وثير إلى جانب إحدى تلك البرك فى حديقة قصره.

وكانت بساتين الشام وجبالها تتخذ مصايف خاصة للأعيان يقضون فيها أمتع أيام العمر.

وتتمثل أقدم مظاهر الاصطياف فى تلك الرحلات الجماعية التى كان يضطر إليها رعاة الجزيرة العربية عندما تشتد حرارة الصيف فى مواطنهم ويعمها الجدب، وتهب عليها رياح السموم القاتلة، فتجعل الحياة فيها لا

تحتمل، فيتجهون ومعهم ماشيتهم إلى حيث يجدون الماء والكلأ، وكانوا يقولون فى تلك الرحلات «تصيف الشرف، وتربع الحزن، وتشتى الصمان» وهى مواقع اعتاد العرب الإقامة فيها فى تلك الفصول(١).

* **المحتسب:**

عندما تم الفتح الإسلامى للأندلس حدثت تغييرات فى نُظُمها، منها استحداث وظيفة جليلة يطلق على صاحبها اسم «المحتسب»، وله أعوان كثيرون، مهمتهم مراقبة تنفيذ القوانين. . .

ففى الأسواق يطلبون من الباعة أن يلتزموا بالأسعار المحددة، ويراقبون المكاييل والموازين، ونظافة المواد المعروضة للبيع وعدم غشها، ويتأكدون من أن الباعة لم يتركوا من ورائهم أوساخًا أو نفايات، ويراقبون السفن فى المياه حتى لا تحمل أكثر من طاقتها، ويمنعون الناس من إلقاء القمامة على شاطئ النهر.

ويمتد نشاطهم إلى المصانع ليتأكدوا من حُسن رعاية صاحب العمل للعمال، ومن نظافة المكان الذى يعملون فيه، ومواءمة الأجر لنوع العمل، والتحقق من المواصفات المطلوبة فى الإنتاج، والحيلولة دون غش المستهلك. . . لقد كانت مهمتهم تمس كل ما من شأنه أن يجعل الحياة أكثر إمتاعًا وأقل عناء(٢).

وإذا ألقت الشرطة القبض ليلاً على أحد فى الشارع لمظنة فيه، فلا يوضع فى السجن، وإنما يتحفظ عليه فى «فندق» إلى أن يطلع الصباح ويُعرض على

---

(١) العرب والصيف: إبراهيم محمد الفحام (بحث منشور بمجلة العربى العدد ٢٣٦) بتصرف.

(٢) ما أحوجنا ـ فى الوقت الحاضر ـ إلى مثل هذا النظام القائم على المتابعة والمراقبة بعد أن فسدت ذمم الكثيرين من الناس، ولم يردعهم سوى الخوف من العقاب.

القاضى. ومما هو جدير بالذكر أن السجن يخضع لتفتيش القاضى مرتين أو ثلاثًا فى الشهر؛ ليتأكد من المعاملة الإنسانية التى يعامل بها المساجين... ولم يكن مسموحًا بتعذيبهم أو التنكيل بهم أو حبسهم حبسًا انفراديا كما يحدث فى بعض السجون الآن.

* * *

obeikandl.com

• نظم الحكم فى الدولة الفاطمية[1]:

فى زمن حكم الدولة الفاطمية فى مصر كانوا يتمسكون بطاعة الإمام الذى يحكم البلاد طاعة مطلقة، وجعلوها مقدسة.

ولم يكن العهد على الطاعة نصّاً يقرأ، وإنما كان يعبر عنه مجازًا بتقبيل الأرض بين يدى الخليفة، أو تقبيل اليد أو القدم، وأن يقول الشخص هذه العبارة: «السلام على أمير المؤمنين».

وكان على قاضى القضاة أو داعى الدعاة أن يقوم بمراسيم البيعة، فيتقدم رجال الدولة بين يدى الخليفة لتقبيل الأرض كرمز للخضوع، فضلاً عن أفراد أسرة الإمام الذين هم أول من يقدمون خضوعهم.

ولكن حينما يكون الإمام صغيرًا جداً، فإن وزير التفويض ـ وهو الوصى عليه ـ كان يأخذ له البيعة بنفسه، ثم يحمله أمام الجماهير بين ذراعيه، كما فعل الوزير «عباس» مع الخليفة الفائز.

وقد جرت العادة آنئذ أن تصدر رسائل إلى حكام الخلافة واصفة ومعلنة ـ فى عبارات مزوقة منمقة ـ خبر تولية الإمام، وأن يُدْعَى له على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة.

---

(١) نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر: الدكتور عبد المنعم ماجد (بتصرف).

وهكذا كان الشأن عند بيعة الخليفة فى سائر الدول الإسلامية، وكان اسمه ينقش على قطع النقود، ويطرز على رايات الجيش.

وكان الخليفة الفاطمى بنفسه يعين الدعاة من قِبَلِه، ويكلفهم نشر العقيدة التى يشرحها لهم، وهو وحده المسئول عن صحتها، فيقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآنى إلى الإمام قبل قراءته على الحاضرين مجالس العلم فى المساجد؛ فإذا نال موافقته وضع عليه علامته، فيصبح الكلام الذى يلقى مقدسًا غير قابل للتبديل أو للتغيير.

وأحيانًا أخرى كان الإمام يرتب فى قصره محاضرات أو مجالس يلقيها بنفسه، وفضلاً عن ذلك كان يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمى.

هذا، وقد كان الأئمة الفاطميون يميلون إلى الاحتفاظ بمظهرهم كرؤساء للدين أكثر منهم ملوكاً، ولا سيما أنهم - قبل كل شىء - زعماء المذهب الفاطمى، وإحدى فرق الشيعة، فكان الإمام يشترك فى كل الأعياد الدينية والشيعية على الخصوص، فيخرج فى حفل رسمى للصلاة بالناس وللخطبة فى يوم الجمعة حيث إن من شأن ذلك أن يعلى مرتبة الإمامة.

وكانت النظرة إلى شخص الإمام نظرة إجلال وتقديس، حتى عدت ملابس الإمام ذاتها هى الأخرى مقدسة.

وكان على الولاة وغيرهم أن يقفوا احترامًا عند استلامهم ملابس الخليفة بعد إعدادها. . . .

ومن التبرك للشخص أن يرتدى ثوباً من الملابس التى كان قد لبسها

الخليفة. . . . أما فى أثناء الأعياد، فكان التجار يزينون الطريق التى قد يمر فيها موكب الإمام بأشياء من تجارتهم لطلب البركة من نظرته.

وكان الناس ـ عند مروره ـ يخرجون سُجَّدًا لتقبيل الأرض، ويذكرون اسمه عند قيامهم.

وكذلك جرت العادة أن يعطى الإمام بركته للجيش والأسطول عند ذهابهم للحرب، أو عند القدوم منها.

ويبدو أن الإمام كان مثل «البابا» عند النصارى، له القدرة على أن يشفع للناس لتكفير خطاياهم.

وقد بالغ علماء الشيعة فى سلطة الإمام الروحية، فنسب المتطرفون منهم العقيدة الروحية للإمام إلى أصل خارجى عند الدين، فكانوا يؤمنون برجعة الإمام بعد موته، ويؤمنون بالتجسيم، ففى رأيهم أن الإله قد حل فى جسم الإمام، أو هو الحلول نفسه، كما تقول جماعات الدرزية.

وهم يرون أيضًا أن منصب الإمامة قد أقيم ليخلف النبى فى حراسة الدين وسياسة الدنيا. . . وأنه لما كانت الإمامة الفاطمية وريثة النبوة، فقد أسبغت عليها صفة القدسية، فالإمامة هى ظل الله فى الأرض؛ ولذا يعد لقب «إمام»(١) من أفضل التسميات عند زعماء الفاطمين، فكان ينقش دائما على قطع النقود، ويذكر فى المراسلات الرسيمة.

وعلاوة على لقب «إمام» كان للفاطميين لقب آخر غاية فى الأهمية، وهو لقب «أمير المؤمنين»؛ لأنه فى الاعتقاد الشيعى يبين صفتهم الروحية التى ورثوها من أسلافهم.

---

(١) نشير إلى أن كلمة إمام تدل على عدة معان فى القرآن منها «مقدم» و«هاد» و«زعيم» و«قدوة» وإن كان المعنى الغالب هو الإمام الذى يقتدى به فى الصلاة.

كذلك كان أئمة الفاطميين على الرغم من سلطانهم الروحى والدينى الواسع يظهرون التواضع والخضوع لله، فكانوا يسبقون اسمهم فى المراسلات الرسيمة بعبارة: «من عبد الله ووليه».

كما كانت تُطلق على الأئمة الفاطميين كلمات ذات صبغة مذهبية بَحْتَة، مثل «الحضرة».. أو «الحضرة الشريفة».. أو «الباب»[1].. أو «إمام الزمان»... أو «صاحب الزمان».. أو «عترة»[2].. أو «مقام».

وبالإضافة إلى ذلك كان يُضاف إلى اسم كل شىء يتعلق بالإمام صفة تدل على تقديسه، مثل «التاج الشريف».. و «المائدة الشريفة» وغيرها من عبارات تميز الفاطميين.

* * *

* **الوزير الفاطمي:**

كان الوزير الفاطمى يتميز بعلامات خاصة عن غيره من رجال الدولة، تمنح له فى مناسبة تعيينه، تسمى «خلع الوزير»، وهى عبارة عن ثياب خاصة ومتعلقات به، فكان الوزير ينفرد بارتداء زى خاص يسمى «دراعة»، وهو ثوب قصير مشقوق من أمام، محلى بِعُرًا وأزرار قد تكون من ذهب أو من لؤلؤ.

وكان يضع على رأسه عمامة ذات لفات عديدة ينزل طرفها ليدور حول رقبته، كما كان يتقلد السيف أيضًا.

ويتقاضى الوزير راتباً شهريا يبلغ خمسة آلاف دينار، وهو أكبر راتب فى الدولة، ومقررات عينية، وكسوات فى أوقات معلومة.

(١) أى: «الباب» الذى عن طريقه تصل الشفاعة للمؤمنين من الله.

(٢) أى أقرباء النبى.

كذلك كان يصرف لأفراد أسرته رواتب نقدية وعينية وكسوات، وكان للوزير حاشية من الخدم والحرس والحجاب يحيطون به فى المواكب العامة، وتصحبه فى جميع تنقلاته الطبل والبوق.

وللوزير وحده حق الجلوس على «مخدة» توضع بجوار الخليفة، أما بقية أرباب الوظائف وكبار رجال الدولة وأعيانها، فإنهم يبقون وقوفاً فى أماكنهم المقررة.

وجدير بالإشارة أن الخلفاء الفاطميين كانوا يختارون وزراءهم من بين المهرة فى تدبير الأموال؛ وذلك لأهمية الموارد المالية فى الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى، فلا مانع من اختيار عدد من الوزراء الفاطميين من أهل الذمة من النصارى واليهود لممارسة الشئون المالية(١).

ولما كان الفاطميون يعطفون على رعاياهم من أهل الذمة، فإن بعض وزرائهم من غير المسلمين كانوا يبقون على عقيدتهم النصرانية حتى بعد توليتهم الوزارة، كذلك كان لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم وتفاوت طبقاتهم الحق فى الوصول إلى هذه الرتبة إذا توافرت لديهم الكفاية اللازمة.

وقد اشترط أيضًا فيمن يتولى منصب الوزارة الإخلاص لعقيدة الدولة التى ترتكز على المبادئ الشيعية.

*** قاضى القضاة:**

يتم تعيين قاضى القضاة من قِبَلِ الخليفة الذى يستدعيه إلى القصر ليمنحه كتاب التولية الشامل على اختصاصاته، وقد جرت العادة أن يقرأ هذا الكتاب على الملأ لتعريف الناس بتولية قاضى القضاة الجديد، ثم يسير القاضى فى موكب رسمى من الفقهاء والشهود والتجار ليطوف فى الحارات.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

هذا، ويسمى كتاب تولية قاضى القضاة «سجلاً»، وهى كلمة مألوفة عند الفاطميين بمعنى «عهد» أو «تقليد» أو «توقيع».

وهذا الكتاب يتضمن عادة تفصيلات عن أعمال القضاء فى مصر والبلاد الخاضعة لها أيضًا.

وجدير بالإشارة أن منصب قاضى القضاة لا يقتصر على الأمور القضائية، وإنما يمتد ليشمل أمورًا أخرى، كالإشراف على الأماكن الدينية، وتولى الإنفاق عليها، والنظر فى المكاييل، والعُملة، والمواريث، وأموال اليتامى... كما كان يتولى فى بعض الأحيان قضاء العسكر.

وكان قاضى القضاة يختار جماعة من الشهود لتقوم بمعاونته فى اختصاصاته الدينية والمدنية الأخرى، ويعرف هؤلاء الشهود بـ «الشهود العدول»، وكان يتم اختيارهم بعناية من بين الأشخاص المعروفين بالأمانة، وخصوصا من بين طبقة الأشراف، ومن ناحية أخرى كان على الشهود أن يقدموا الضمانات الكافية حتى لا يسيئوا إلى سير العدالة، أو يعرقلوا عمل قاضى القضاة الذى كان له مطلق السلطة فى تصفح أحوالهم، ومراقبة سيرهم.

ويلاحظ أن هؤلاء الشهود كان معظمهم من الفقهاء الذين يشتركون أحيانًا فى الإدلاء بآرائهم، ولكن القاضى لم يكن مضطرا إلى الأخذ بها؛ لأنه وحده له حق النطق بالحكم.

هذا، وكان القُضاة يُختَارُون عادة من بين أئمة الدين المعروفين بعلمهم الواسع فى الفقه الشيعى.

ولكى تأخذ العدالة سبيلها القويم يتقاضى قاضى القضاة راتباً عالياً، حتى لا يطمع فى أموال الناس، أو يُلحق بأحد أى ظلم.

ويتمتع قاضى القضاة أيضًا بألقاب رنانة، فكان الناس يخاطبونه بـ «سيدنا»، وفى الأعياد الرسمية له أعلى مكانة بحكم منصبه الرفيع، فله التقدم على كبار رجال الدولة ـ ما عدا الوزير ـ... ولا يظهر فى هذه الأعياد إلا محاطاً ببطانة من الشهود، مكوناً بذلك ما يشبه الحاشية.

وكثيرًا ما يشرف الخليفة كبير قضائه والشهود بالجلوس إليهم فى الموالد والليالى الأربع الأول من شهر رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، بل كان الخليفة يحرص ـ أحيانًا ـ على الصعود معه على المنبر فى بعض الأعياد.

*** صاحب المظالم:**

ويعرف هذا المنصب باسم «النظر فى المظالم»(١)، وهو من المناصب القضائية الهامة الداخلة تحت سلطة الخليفة، الذى بدوره ينتدب إليها شخصًا يتحقق فى أمرها... ويعقد مجلس النظر فى المظالم بالعاصمة ـ مقر الخلافة ـ يوميًا إذا كان ينفرد بها مسئول دون مهام أخرى... أما إذا كانت فى يد مسئول له مسئوليات أخرى فَيُحَدِّد لها يومًا أو أكثر من يوم فى الأسبوع.

وكانت إجراءات قضاء المظالم تحيط بها الهيبة، حيث ينادى «المنادى» بصوت عال: «يا أرباب المظالم»... وبذلك تبدأ الجلسة.

وكان الذين يأتون من أماكن بعيدة لهم الحق فى أن تنظر شكواهم قبل غيرهم...

وأغلب المتظلمين لهذا المجلس من بسطاء الناس، أو النساء المستضعفات، أو الذين يتظلمون من «الاشتطاط» فى جمع الضرائب من غير وجه حق، أو اغتصاب الأموال بالقوة، أو قسوة الجُباة.

---

(١) هو أشبه بقضاء الاستئناف الحالى.

وجدير بالذكر أن مجلس المظالم كان رحيمًا، وخصوصا برعايا الدولة من أهل الذمة، عطوفًا بهم عند النظر فى إسقاط الجزية، أو التصريح ببناء الكنائس.

هذا، وقد كان يتولى هذه المهمة أحياناً قاضى القضاة، حيث يدعى لشغل المنصب لمعرفته القانونية، وتجاربه وخبراته المتعددة[1].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

obeikandl.com

• من قصور سلاطين بنى عثمان ـ قواعد وأصول[1]:

ـ كانت عادة سلاطين بنى عثمان ألاَّ يتزوجوا إلا أميرات مسلمات أو نصرانيات، وألاَّ يجمعوا تحت عصمتهم إلا الحليلات الأربع اللواتى أباحهن الشرع للرجل المسلم... وكان آخر من سار على هذا النهج السلطان محمد الفاتح.

أما من جاء بعده من السلاطين فقد هجروا عادة الزواج واكتفوا بالسريات، لا يتخذون منهن أكثر من أربع فى أول الأمر، ويعاملونهن معاملة الزوجات برغم عدم وجود عقد زواج يربطهم بهن.

والسرية تعرف بـ «القادن»... وتعد «القادنات» أرفع سكان الحريم من النساء منزلة؛ فقد كان لكل منهن جناحها الخاص، وخدمها الخاصون.. ولا ترى القادنات الأخريات إلاَّ فى المناسبات والاحتفالات الرسمية... وأرفع القادنات مقامًا أقدمهن فى صحبة السلطان، ويليها فى المرتبة من تنضم بعدها إلى الصحبة السنية، ويترتب على قدمها وعلو مقامها ازدياد مخصصاتها المالية على مخصصات زميلاتها المتأخرات عنها.

---

(١) مجلة العربى: العدد الثانى والستون (بتصرف).

و«القادن» التى تنجب الأولاد أعلى مقامًا من التى لا تنجب. وإذا أنجبت صبيّاً فقد ضمنت لنفسها الحظوة التامة عند مولاها، وأصبح اسمها «خاصة كى سلطان»... أى المفضلة عند السلطان... وأخذ الناس ينادونها بالسلطانة... وهو لقب مخصص لبنات السلطان فقط.

أما القادنات اللواتى ينجبن البنات فيصبح اسمهن «خاصة كى قادن»، وهن دون الـ «خاصة كى سلطان».

وأورع ما تحلم بن « القادن» هو أن يصبح أحد أولادها سلطانًا، فتحمل حينئذ لقب «والدة سلطان».. وتتمتع بأرفع مركز نسائى فى الدولة، ويصبح من حقها أن تتوجه بالخطاب إلى الوزير الأعظم مباشرة دون حاجة إلى وسيط.

ويلى القادنات فى المرتبة أربع طبقات من الجوارى، أعلاها الطبقة المسماة باسم الـ «غديكليس» التى تنتخب القادنات من بين أفرادها، كما أن بعض جوارى هذه الطبقة يصبحن وصيفات شرف للسلطان، ويتولين خدمته أو يتسلمن وظيفة خازن دار الحريم.

ويلى هذه الطبقة طبقة ثانية، مهمة أفرادها خدمة والدة السلطان والقادنات وأولادهن.

أما الطبقة الثالثة من الجوارى فهى طبقة الجوارى المتمرنات اللواتى ألحقن بالحريم مجددًا. ويجرى تدريبهن على القراءة والكتابة، والخياطة، والتطريز، والموسيقى، والغناء، والرقص، حتى يستطعن الالتحاق بالطبقات الأعلى حين تدعو الحاجة ويتوافر مكان شاغر.

أما الطبقة الرابعة فهى طبقة جوارى الخدمة، ولا تستطيع الواحدة منهن أن ترتفع عن طبقتها هذه، بعكس زميلاتها فى الطبقات الأعلى.

وكانت كل نساء الحريم من الجوارى الأجنبيات، وكن فى غالبيتهن من الأوربيات اللوتى أُسِرْنَ فى الحروب التى خاضتها الجيوش العثمانية ضد الدول الأوربية.

وقد اشتهر من هولاء الجوارى الأوربيات الأصل: «خرم سلطانه» سرية السلطان «سليمان القانونى» التى عرفها الأوربيون باسم «روكسلانا» والتى كانت من أصل روسى.

ثم والدة السلطان «محمد الثالث» التى كانت من سبايا البندقية، ووالدة «مراد الرابع» و«إبراهيم» التى كانت سبية يونانية(١).

ومنذ نهاية القرن السادس عشر أخذت أعداد كبيرة من الجوارى القفقاسيات تتدفق على العاصمة العثمانية، ومنها إلى القصر السلطانى... وقد أعجب السلاطين بالقفقاسيات كثيرًا، وذلك لجمالهن وذكائهن وبراعتهن فى فنون الخدمة، وكن يلحقن بالحريم وهن صغيرات لا يزيد عمر الواحدة منهن على العاشرة أو الحادية عشرة، فيُدَرَّبْنَ ويُرَبَّيْنَ حتى يصبحن أهلا لخدمة السلطان أو صحبته.

وكثيرًا ما كان رجال الدولة يهدون السلطان جوارى أكبر سنّاً، وذلك بعد تدريبهن وتثقيفهن وصقل مواهبهن، فيتقبل السلطان الهدية وينعم على صاحبها إذا صادفت من نفسه قبولا.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

.وكثيرًا ما كان السلاطين ينعمون على جواريهم بالعتق، فتصبح الواحدة منهن حرة تستطيع الزواج من أى شخص تريد، وتترك حريم القصر(١).

وإذا توفى السلطان كان من حق «قادناته» اللواتى لم ينجبن أولادًا أن يتمتعن بحريتهن، وأن يتزوجن ممن يرغبن من الرجال. وكان كبار رجال الدولة يحبِّذون الزواج من قادنات السلطان المتوفى؛ لما لهن من نفوذ فى الدولة، ولما لهن من اتصالات بالمسئولين الكبار، مما يثبت مركز الزوج ويرفع شأنه.

ولم يكن مسموحاً لنساء الحريم مهما كانت طبقتهن أن يغادرن القصر إلا إذا صحبهن السلطان فى رحلة من رحلاته، أو أمرهن بالانتقال معه إلى أحد قصوره الصيفية خارج العاصمة، حتى إنه لم يكن ليسمح لهن فى أغلب الأحيان بتعدى جدران دار الحريم إلى جزء آخر من أجزاء القصر، ولا بد لهن من استئذان السلطان نفسه إذا أردن الخروج إلى حدائق القصر.

. . . وإذا سمح لهن ـ ونادرًا ما كان يحدث ـ فإن حراسة شديدة تقام حول الحدائق، ويمنع اقتراب أى شخص منها، حتى لا تمتد الأنظار الفضولية إليهن.

وقد كانت مبانى الحريم تضم إلى جانب بيوت القادنات والجوارى بعض الساحات المكشوفة والحدائق الصغيرة، كما تضم جناحًا خاصا بالسلطان يتكون من عدة غرف للنوم، وقاعة كبيرة للاستقبال، وحمام خاص.

وكان لكل من القادنات ولوصيفة الشرف ولخازنة دار الحريم حمَّامها الخاص، أما بقية الجوارى فكان لهن جميعًا حمام مشترك واحد.

(١) الحريم هو الجزء من القصر السلطانى الذى تسكنه نساء السلطان ومحظياته وأطفالهن الصغار وبعض الخصيان الذين يقومون بخدمتهن.

وتشبه مبانى الحريم مستعمرة صغيرة تتألف من عدد من البيوت والحدائق والساحات يسكنها نساء السلطان وجواريه وأولاده وخدمه، ولا يدخلها من الرجال سواه.

ويعامل السلطان فى هذه المستعمرة النسائية بأسمى معانى الإجلال والاحترام، فلا ترفع واحدة من النساء عينها لتلتقى بعينه، وإذا سمعن وقع خطواته فعليهن أن يختبئن وألاَّ يظهرن إلا إذا دعاهن... وحتى تعرف ساكنات الحريم أن السلطان قادم إليهن، كان يلبس خُفّاً نعله من الفضة إذا مشى به فوق الرخام أخرج صوتًا معينًا تعرفه النساء فيقمن له.

وبالنسبة للخصيان فهم الذين يحرسون دار الحريم، ويقومون بإدارة الكثير من شئونها. ومنذ مطلع القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر، كان أغلب خصيان القصر من البيض، ومن أصل قفقاسى، ثم استخدم الخصيان السود فى حكم السطان «مراد الثالث»، ومنذ ذلك الحين أخذت أعداد كبيرة منهم تدخل دار الحريم، وأصبح لهم الرئاسة على البيض، بل زاد نفوذهم إلى حد تدخلهم فى شئون الدولة، وأسلمهم السلاطين مقاليد الأمور، فكان رئيس الخصيان ثالث رجل فى الدولة، وهو «دار السعادة آغاسى»...

وقد أوكل إلى الخصيان السود أمر حماية الحريم والإشراف على شئونهن، أما الخصيان البيض فقد اقتصرت مهامهم على أعمال الخدمة.

وكان هؤلاء الخصيان ينتقون من بين العبيد الذين تحضرهم القوافل القادمة إلى مصر من دارفور، وسنار، وغيرهما... وكان الأطفال منهم يخصون

قبل وصولهم إلى مصر عند موقع قرب أسوان، ويقوم بعملية الخصى أشخاص من القبط؛ لأن الشريعة الإسلامية تحرم هذه العملية. وبعد أن يلتحقوا بالقصر تبدأ عملية تثقيفهم وتدريبهم على الخدمة وآداب السلوك من قبل متقدميهم من بنى جنسهم، ويتولون أثناء تدريبهم حراسة أبواب دار الحريم، وينامون فى أماكن مخصصة لهم قرب الدار.

وبعد أن ينهوا تدريبهم ودراستهم يمرون بمراتب مختلفة فى السلم المهنى، تبدأ بعضوية الحرس، وتنتهى بمنصب رئيس الحرس... ويتولون أثناء ذلك خدمة القادنات، ويرتقون منها إلى وظائف أعلى قد تصل إلى مرتبة «القزلار آغاسى» التى تعادل رتبة الوزير فى الدولة.

والخصيان البيض والوصفاء شباب لا تزيد سن أكبرهم على الخامسة والعشرين... ويطلق على الوصيف اسم «إيج أغا» أو «إيج أوغلان» حسب سنه، فإذا كان كبيراً كان من فئة الـ «إيج أغا».. وإذا كان حدثًا ومستجداً فى الخدمة فهو «إيج أوغلان».

وكان الأشراف على الوصفاء من اختصاص الخصيان البيض، فحين توكل إلى بعضهم مهمة الخدمة فى جناح من أجنحة القصر أو عند بعض سكانه يشرف أحد الخصيان البيض عليهم، ويكون مسئولاً عنهم... ويسمى رئيس الخصيان البيض «باب السعادة آغاسى»... أى رئيس البوابة، ويتبعه فريق من الخصيان البيض يبلغ عددهم أربعين خصيا، يوزعون فى مهام الخدمة المختلفة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القصر السلطانى كان يحوى إلى جانب هؤلاء الوصفاء والخصيان موظفين كبيرين هما: المسئول عن المؤن، والمسئول عن

الخزينة الخاصة. . . كما كان يحوى عددًا من الموظفين المتخصصين الذين تتناول واجباتهم أمورًا تهم السطان شخصيا، كالحلاقين، والمسئولين عن «العمامة»، والموسيقيين، والخدم، والأقزام، والصم الذين يقومون بحمل رسائل السلطان، أو يحضرون مقابلاته مع شخصيات الدولة لحمايته دون أن يفهموا ما يجرى بينه وبينهم من أحاديث.

ويبلغ عدد الخدم الخاصين بالسلطان أربعين خادمًا، ويسمى الواحد منهم «خاص أوضه لى»، ومهمتهم حلاقة ذقنه ومساعدته فى ارتداء ملابسه وخدمته أثناء طعامه وغير ذلك. . . ويرأسهم رئيس يعرف باسم «السلحدار أغا». . أى حامل السيف.

وقد احتل «السلحدار أغا» ـ اعتبارًا من مطلع القرن الثامن عشر ـ مركزًا رفيعاً فى القصر، وأصبح له الإشراف على جميع شئون الخدمة الداخلية عوضًا عن رئيس الخصيان البيض.

أما الجهاز المسئول عن الخدمة الخارجية فقد اشتمل على عدد كبير من الموظفين، بعضهم يسكن داخل حدود القصر السلطانى، وبعضهم يسكن خارجه، وكان على رأس هذا الجهاز عدد من أصحاب الوظائف يحملون رتبة «الأغا» بينهم حامل العلم. . . والمسئول الأكبر عن الخيول السلطانية. . . ورئيس البوابين. . . ورئيس البستانية.

ويعد حامل العلم أعلى موظفى الخدمة الخارجية، وهو المسئول عن اللواء السلطانى، والجوقة الموسيقية العسكرية التابعة للقصر، والمراسلين الذين يحملون رسائل السلطان المختلفة.

أما المسئول الأكبر عن الخيول فكان له الإشراف على الاصطبلات التابعة للقصر، والمراعى المخصصة لخيول السلطان والتى تقع على جانبى البوسفور، ويليه فى المرتبة مسئول أصغر عن الخيول، وبعهدته حيوانات النقل والمركبات التى يستعملها السلطان فى تنقلاته.

وبالنسبة لرئيس البوابين فمسئوليته هى حراسة بوابات القصر ومراقبة الداخلين إلى القصر والخارجين منه.... وقد عهد إليه فيما بعد بالإشراف على الاحتفالات التى تقام فى القصر، ويشترك معه فى هذه المسئولية الوزير الأعظم، الذى ما لبث أن احتكر هذه المهمة لنفسه وأقصى عنها رئيس البوابين.

أما بالنسبة لرئيس البستانية فهو يعد من أكبر موظفى الخدمة الخارجية، ومقامه يلى مقام حامل العلم مباشرة، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه كان المشرف على استجواب وإعدام موظفى القصر الذين يشك السلطان فى ولائهم... ولأنه كان يقوم على رأس جهاز يتألف من ألفى رجل يعملون فى البستنة وفى أعمال أخرى... وقد جند هذا العدد الكبير من الرجال أول الأمر لاستصلاح الأراضى الوعرة التى قام عليها القصر السلطانى ولتحويلها إلى حدائق وبساتين تتناسب مع جمال القصر وبهائه.

وبعد أن أتم الرجال هذه المهمة غدا عمل الكثيرين منهم بعيدًا عن الزارعة كل البعد، فأصبح بعضهم يقوم بمهمة حراسة مبانى القصر المختلفة، وبعضهم يشرف على أمن البوابات الكثيرة التى تؤدى إلى القصر، وبعضهم يحرس موانئ القرن الذهبى والبوسفور وبحر مرمرة... وقد عين السلطان بعضهم كحرس خاص، كما عهد إليهم بقيادة السفن الخاصة به... وكان لرئيس

البستانية إلى جانب الإشراف على هذا العدد الكبير من الموظفين مهام أخرى، كتمويل مطابخ القصر بالأغنام والدواجن والطيور ورفع القمامة، والإشراف على «الحكواتية» والمهرجين والسحرة والموسيقيين الذين يؤمون القصر لتسلية السلطان وحاشيته... وتلى تلك الطبقة طبقة الأمناء التى تحوى خمسة «أمناء» أهمهم «الشهراميني» أى متسلم المدينة، و«الضرب خانة أميني» أى متسلم دار المسكوكات، و «المطبخ أميني» أى المشرف على المطابخ السلطانية، والـ «أريا أميني» أى المسئول عن الشعير، والـ «قصر فى شهر ياري أميني» أى المسئول عن المؤن.

أما غيرهم من الموظفين فليست لهم قيمة كبيرة، ويتبعون الأغوات والأمناء، أو الخصيان وغيرهم من موظفى القصر الكبار. ومن هذه الفئة السَّقَّاءُونَ، والخَيَّاطون، والفَرَّانُون، والحَطَّابُونَ، وغيرهم من أصحاب المهن الأخرى. ومن هنا نرى أن القصر كان يعد أهم المؤسسات فى الدولة العثمانية ويتميز بطابع خاص غريب، أفرد السلاطين جزءًا منه وجعلوه حريمًا، أما بقية أجزاء القصر فكانت تتألف من قسمين أساسيين: قسم يعد بمثابة مسكن خاص للسلطان لا يدخله إلا هو وخاصة خدمه... وقسم آخر للاستقبال وإقامة الاحتفالات وعقد الاجتماعات، وهو مفتوح لرجال الدولة وأعيان الرعية والوفود الأجنبية وما شابه ذلك.

ولا يدخل المسكن الخاص ودار الحريم إلا السلطان وخصيانه وقهرماناته.. ويصل بين هذين الجزأين من القصر جزء وسط يعرف باسم الـ «مابين»، ويتكون من عدة غرف يتهيأ فيها السلطان لدخول الحريم، كأن يرتدى ثياب الراحة، أو يقص شعره، أو يستكمل زينته ليدخل على حريمه(١).

(١) كيف كانت الحياة تجرى فى قصور سلاطين بنى عثمان: د. نبيه عاقل: بحث منشور بمجلة العربى، العدد الثانى والستون (بتصرف).

• القدور و«الزلع» المدفونة فى باطن أرض المساجد والمنازل:

من العادات القديمة فكرة القدور الذهبية أو «الزلع» المدفونة فى باطن أرض المساجد والقصور والمنازل بين الناس.

يقول بعض المؤرخين: «إن بناة المساجد فى العصور المتقدمة كانوا يحرصون على إخفاء بعض العملات الذهبية تحت مئذنة المسجد، أو أسفل المنبر لاستخدامها فى إعادة البناء إذا ما تهدم المسجد بمرور الزمن، أو إنفاق هذه العملات على عمليات الترميم والصيانة».

ويقال أيضًا:

«إن بعض الأمراء وأصحاب المناصب كانوا يخفون ما لديهم من عملات ذهبية فى أرض قصورهم؛ تأمينًا لمستقبلهم للإنفاق منها عند الحاجة».

والجدير بالإشارة أن مثل هذه الروايات تنتشر بين عامة الناس، ويزداد الاعتقاد بصحتها عندما يكتشف رجال الآثار بعض هذه العملات فى باطن أرض صحن مسجد، أو تحت سور قصر قديم، أو عند هدم كثير من البيوت القديمة(١) وعثور العمال عند إزالتهم لأنقاضها، وخصوصا أساساتها وأعتابها ـ على ما كانوا يسمونه «كنوز اللقية».

(١) يلاحظ أن بعض الباحثين لهم تفسير آخر لتلك العادة القديمة، وهى أنها كانت بغية التبرك وجعل الدار دار سعادة، فضلاً عن طرد الأرواح الشريرة، وذلك فى حالة إقامة دار جديدة للسكنى فيها. =

هذا، وقد ورد فى القصص والتاريخ الشعبى ذكر الكنوز المخبأة فى القدور المدفونة تحت العتبة(٢).

* * *

= ويقول آخرون: إن دفن بعض العملات الذهبية والفضية أو غيرهما كانت بهدف جعلها فداءً للدار عند أسياد الأرض من أهل الجان!

كما يلاحظ أنه كان هناك تقليد فرعونى خاص بالاحتفاظ ببعض الآثار الهامة فى أساسات المعابد، فضلاً عن كتابة التعاويذ السحرية وإخفائها فى أعتاب البيوت.

(٢) المرجع السابق (بتصرف).

obeikandl.com

• مهن وحرف لها مكانتها العظيمة:

فى مصر... كانت هناك مهن وحرف تقليدية لها أهميتها ومكانتها العظيمة ينعم بها أصحابها مثل النجارين المشتغلين بصناعة «الأرابيسك» الذين كانت لهم شهرة كبيرة، وخصوصا فى صناعة منابر المساجد، حيث يستغرق العمل فى الواحد منها ما لا يقل عن عام كامل.

ومثل النجارين المشتغلين بصناعة صناديق العرائس[1] التى تتفاوت أثمانها تبعًا لزخرفتها بالأصداف والفضة.... وكانت تخصص لحفظ الثياب والمجوهرات وآنية العطور.

ومن تلك المهن التقليدية التى عرفت بأصحابها بيع البخور، حيث كان هناك باعةُ البخور الموسميون، وخصوصا فى يوم عاشوراء[2]، حيث يحمل الواحد منهم على رأسه صينية مستديرة من الخشب عليها أصناف من البخور المتعددة، فينادى على بضاعته: «عاشورة البركة».

كما كان هناك «المبخراتى» الذى يرتدى جلبابًا أبيض، وله حزام وطاقية خضراء، ويبدأ بتبخير السلالم، فيصعد إلى الطابق الأول من البيت ثم إلى

(١) هو فن مصرى قديم قد اندثر، وكانت هذه الصناديق تصنع فى حارة «الصنادقية» المواجهة للجامع الأزهر بمنطقة الدارسة بالقاهرة.

(٢) العاشر من شهر المحرم.

الطوابق العليا، وعندما يتصاعد دخان البخور يصيح: «بخروا السلالم من عين أم سالم».. «وبخروا السرير ليطق ويطير»... «وبخروا المرتبة من عين مسعدة»... «وبخروا اللحاف من عين أم خلاف»... «وبخروا المخدة حاتنام وتهدى».

أما فى المطبخ فلا يبخر شيئًا سوى مغرفة الطعام، فيقول بصوت مدوٍّ وقد لمعت عيناه: «بخروا المغرفة من عين أم مصطفى».

ومن أشهر الباعة الموسميين باعة العصافير الذين كانوا يطلقون عليها اسم «عصافير النيل».. ويبيعونها بالدستة مذبوحة ومنظفة ومربوطة الأرجل بالخيط، وكان لهم نداء موحد له نغمة واحدة فى كلمة واحدة: «فجافيجو... الفجافيجو..» هذا، وقد كانت تمتاز نداءات الباعة بالاختصار حتى يسهل ترديدها وتنغيمها، كباعة الخضراوات(١) والفواكه، أو باعة الصابون(٢) وغيرهم.

*** الأزياء والمعتقدات الشعبية القديمة:**

ينبغى عند دراسة الأزياء وتاريخها ومذاهبها وتنوع أشكالها ومناسباتها أن نقف أيضًا على الجانب الآخر من هذه الدراسة، وهو مدى ارتباطها بالمعتقدات التى كانت سائدة وقتئذ.

---

(١) فقد اشتهر عن باعة الخضراوات نداءاتهم مثل «خضرة يا ملوخية» .. «ولوز يا بامية».. «ومجنونة يا قوطة» ومن نداءات باعة الفاكهة: «ع السكين يا بطيخ.. حَمار وحلاوة» و«فيومى يا عنب».. وكان ينادى على القصب بـ «خد الجميل يا قصب».

(٢) كان باعة الصابون من الشام يطوفون وعلى كتف الواحد منهم جوال به قطع الصابون ينادى عليه «نابلسى يا صابون... والصابون النابلسى».

ومن تلك المعتقدات التى كانت شائعة فى الماضى البعيد أنه من كَتَبَ سورة «البلد» على ثوب أثار فى النفوس الهيبة والاحترام، ولو دخل وهو مرتديه على سلطان قربه إليه وقضى حوائجه.

كما تشيع فى المعتقدات الشعبية القديمة أن هناك قُوًى خيرة تتقمص فى ثنايا الثياب، فتكسب من يرتديها نفوذًا وسيطرة خارقة.

كذلك تزعم العقائد الشعبية أن هناك قوى ضارة تتخلل الثياب، فإذا دخلت امرأة وهى مرتدية ثوباً مصبوغًا بالنيلة(١) على امرأة والدة ترضع طفلها فإنها تشهر هذه الأخيرة(٢). ولكى تزيل هذه الآثار الضارة وجب عليها أن تزور مصبغة النيلة، فمتى دخلتها تشفى مما أصابها(٣).

ومن العادات الشعبية التى كانت منتشرة عام ١٨٩٤ تجنب تفصيل الثياب أيام الثلاثاء أو الأربعاء، وذلك لأن الثلاثاء للوارث، والأربعاء فيه ساعة نحس... وأن أفضل يوم لتفصيل الثياب والغسيل هو الخميس، وتجنب الأربعاء من آخر الشهر... وأن المرأة التى تغسل(٤) غسيلها أربعين أحدًا متتالية تسعد سعادة لا يسعدها أحد.

ومما كان يقال فى القرن الماضى عن الغسيل إذا جاء المساء، ولم ينزل من على حبال النشر تأتى «أم المصاصة» وتنفض عليه ريشها الذى يشبه الإبر،

---

(١) النيلة: مادة ملونة يصبغ بها، وتستخرج من نبات النيل.

(٢) يقصدون أنها تصاب بالعقم بعد هذا.

(٣) قطائف اللطائف ١٨٩٤.

(٤) ومن أقوال النساء فى المجتمعات الشعبية القديمة عند شعورهن بأن الغسيل كثير، وأنها قد تعجز عن الفراغ منه قولها فى أثناء غسيلها: «يا قرد يا شيطان حطه على الحبال» فلا تلبث حتى ترى الغسيل قد انتهى كله وعُلق على حبال النشر!!

فلا يكاد يلبسه أحد حتى تنفذ تلك الإبر إلى جسمه، وذلك للتحذير من عدم ترك الغسيل حتى يسقط عليه الندى.

ومن العادات الشعبية أيضًا أنه إذا حدث طفح جلدى يُلبسون المصاب به بدلة حمراء «فيروح الشر» على حد تعبيرهم.

والثياب الريشية أو المجنحة التى توجد فى غالبية «شيلان» القرويات فى الريف المصرى تمتاز بألوانها الزاهية البراقة، وقد اتخذت فيها الزخارف شكل الريش فى تموجه، وتظهر أوجه التقارب جلية واضحة بين النماذج الفرعونية والإسلامية والشعبية إلى حد لا يستبعد معه استمرار التقاليد القديمة حتى يومنا هذا..

ولعل فكرة الثياب الريشية أو المجنحة مرتبطة بأسطورة «إيزيس» التى تتخذ شكل طائر، وتجول باحثة عن أشلاء «أوزيريس» فى مختلف أرجاء البلاد، فهى تطير بين المشرق والمغرب لتجمع أعضاء هذا الجسد لتبعث فيها الحياة من جديد.

ومما هو جدير بالذكر أن الزخارف التى تُطرز على الملابس الشعبية تتخذ صفة الحجاب، سواء فى أشكالها الهندسية أو فى الحلى الذى يتخذ هو الآخر صفة الحجاب أو الحرز، بجانب الاستعانة بالتمائم.

ومن المعتقدات القديمة أن طيَّ الثياب يرجع إليها أرواحها، وأن الشيطان إذا وجد ثوبًا مطويا لم يلبسه، وإذا وجده منشورًا لبسه[1].

وكان التقليد يقضى بأن تُبَخَّرَ بعض الملابس مثل الطاقية، أو الطربوش، أو المنديل، كما كانت تخاط أحجبة فى أرجل سراويل الرجل لمنع العين، كما

(١) الشواهد والإعلام فى سنن خير الأنام (بتصرف).

كان كثيرٌ من الأجانب المستوطنين فى مصر يضعون أعينًا زجاجية فى جيوب ملابسهم لمنع العين أيضًا.

أما بالنسبة للنساء فقد كُنَّ يعلقن فى الشعر والضفائر بعض الخرزات لتكون بمثابة حجاب أو حرز لمنع العين، أو الاستعانة بخصلات شعر مصنوعة من خصل صوف أحمر بغرض جلب العين وشغلها عن حسد جمال الشعر ووفرته(١).

* **طاسه الخضة:**

كانت بمصر عادة شعبية حتى بداية القرن الحالى، ثم أخذت تتلاشى تدريجيا بعد الربع الأول من هذا القرن، وهى استعمال «طاسة الخضة». وهى عبارة عن إناء صغير كُتب عليه بعض العبارات السحرية والتعاويذ بخط تتعذر قراءته فى غالبية الأحيان، وفى وسطه شكل أسطوانى يشبه النافورة، تتدلى منه سيقان نحاسية صغيرة تشبه السمك، تحدث عند تحريك الإناء صوتًا خافتًا، وقد جرت العادة أن يشرب الشخص المخضوض من «طاسة الخضة» إذا أصيب بذعر وفزع، حيث كان المعتقد السائد أن هذه الطاسة تُعَدُّ نوعًا من الأجراس والصنوج التى من شأنها طرد الأرواح التى تصيب الإنسان أو الحيوان بالسوء، وأنه متى طردت هذه الأرواح زال الاثر السيئ المصاحب لها فيشفى الشخص مما أصابه!.

وجدير بالإشارة أن الاستعانة ببعض المعادن لطرد الأرواح الشريرة منتشرة فى كثير من الوصفات السحرية، فإذا نقش أحد الأقسام السحرية على لوح

---

(١) الأزياء الشعبية، لسعد الخادم (بتصرف).

من الرصاص ووضع فى شبكة الصياد كثر صيده، وإذا نقشت الحروف النورانية فى شكل مدور من الفضة وأمسكه عنده فإنه لا يخلو من نفعه.

ومن نقش اسمه تعالى «الحفيظ» على صحيفة من القصدير فإنها لا توضع فى شىء إلا حفظ.

ومن نقشه على فص خاتم من فضة وحمله ونام فى وسط السباع فلن يناله ضرر!

وإذا نقش أحد الأقسام السحرية على فأس وحفرت بها بئر فإن الماء يظهر بسرعة ويُبَارَك فيه[1].

* * *

(١) الفن الشعبى والمعتقدات السحرية، لسعد الخادم (بتصرف).

obeikandl.com

• زواج الخليج «على البركة»:

من العادات القديمة فى مصر... حين يبدأ موسم فيضان النيل أن يسارع المصريون «أبناء الحظ» إلى تزويج «الخليج الناصرى(١)» من«بركة الرطلى»(٢).. وكان الحفل يبدأ باستئذان والى القاهرة(٣) لإقامة حفلهم، ويختار سكان البيوت المطلة على الخليج وفدًا منهم على رأسه «خاطب» يرتدى ثيابًا بيضاء ليقابل «نقيب أعيان» سكان البيوت المشتركة على «بركة الرطلى» كوكيل للعروس(٤).

وبالطبع يوافق نقيب أعيان البركة، فيخرج الوفد يتقدمه «الخاطب» معلناً للجماهير تمام الخطبة... ويكون هذا الإعلان بركوب «الخاطب» ومن معه

---

(١) كان «الخليج الناصرى» فى المكان الذى يحتله الآن جزء كبير من شارع رئيسى بمدينة القاهرة وهو (٢٦ يوليو).

(٢) «بركة الرطلى» كان موقعها وسط حى الطبالة الذى يعرف الآن بحى الفجالة، وكان فى شرقيها زاوية بها نخيل كثير، وفى هذه الزواية كان يحيا صانع الأرطال الحديدية التى كان يزن بها البائعون ـ حينئذ ـ سلعهم؛ ولذلك سمى الناس هذه البركة فى هذا الحى «ببركة الرطلى». وكان «الخليج الناصرى» يغذى بركة الرطلى بالمياه... هذا، وقد اعتاد الناس ركوب الزوارق الصغيرة التى كانت تعرف باسم «الشخاتير»، والتنزه فى «بركة الرطلى» عصر كل يوم.

(٣) الوالى هو ما يعرف الآن بالمحافظ.

(٤) أى بركة الرطلى.

من وفد الخليج فى الزوارق الصغيرة يبحرون فى الخليج إلى أن يصلوا إلى «البركة» فيطوفوا بشطآنها، وعندئذ تنطلق الزغاريد فى بيوت البركة من النساء، وتعلو صيحات الفرح بين الشباب والأطفال.

وفى اليوم الثالث تُنصب الأعلام، وتُعلق القناديل على بيوت وشوارع «الخليج» و «البركة».. ويُقام فى المساء احتفال كبير لعقد الزواج.. زواج «الخليج» على «البركة». ويعقد الزواج أكبر المأذونين سنا فى مدينة القاهرة.. وبعد العقد، تلقى الحلوى والحناء فى «البركة» ثم تبدأ مواكب الأفراح تطوف خلال الأزقة والحارات فى «الخليج» و«البركة» على السواء.

وفى هذه المواكب تخرج النساء فى حى «البركة» سافرات الوجوه، وقد تزينَّ بالثياب الجديدة والحلى، ويحملن قناديل ملوثة بالدماء، وبعضهن كن يركبن الزوارق ويتجولن فى أرجاء البركة مزغردات وراقصات... واستمرت هذه العادة الطريفة سائدة حتى تجاوز «أبناء الحظ» كل الحدود فى هذا الاحتفال فى موسم الفيضان، عندئذ أقام الوالى سلسلة حديدية تصل بين الخليج والبركة لوقف عبور الزوارق لإبطال موبقات هذا الزواج العجيب التى كثرت.

*** عادة طريفة لأحد الحكام:**

من العادات الطريفة التى اشتهر بها الخديوى إسماعيل وعرفها «قصر عابدين».. أن «الخديوى إسماعيل» كان يرسل إلى جيرانه فى الحى صوانى الأطعمة الفاخرة فى ليلة القدر... وكان الرد على الهدية الخديوية كل عام اثنى عشر إردبًّا من القمح قبل موسم عاشوراء، يتقبلها الخديوى مُرحبًا، ويردها إلى أهل الحى أطباقًا من العاشوراء المصنوعة فى مطابخ القصر محشوة باللوز والفستق، ومغطاة بمفارش ثمينة من الحرير.

وكان الطبق مصنوعاً من «البورسلين» الفاخر، ويبلغ قطره خمسين سنتيمترًا، وعمقه نحو عشرين سنتيمترًا، ومزخرفًا بالنقوش الفنية، مما يعد تحفة رائعة.

هذا، ولم تكن تلك الأطباق تسترد؛ ليحتفظ بها الأعيان متباهين بأطباق «الخديوى»!.

* * *

*** عادة الاحتفال بـ «السبوع»:**

من العادات والتقاليد القديمة فى مصر ـ ولا يزال بعضها سائدًا فى أنحاء منها ـ عادة الاحتفال بما يسمى بـ «السبوع»، وذلك فى اليوم السابع لمولد الطفل، حيث تجمع الوالدة صديقاتها وتمضى اليوم كله فى لهو معهن.. وتنقضى الفترة بين الإفطار والغداء فى غناء راقص تقوم به العوالم... وبعد الغداء يقام حفل للطفل الجديد، وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادمات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس وُضع فوقها ـ وبشكل دائرى ـ عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال.

وهذه الشموع بألوانها المتعددة تُضاء، ثم تسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل، وعلى جانبيها خادمتان، تحمل صغراهما موقدًا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقًا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح وبخور... أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل.

بعد ذلك تمشى الأم تحيط بها أقرب صديقاتها إليها وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة من الموكب. وفى أثناء السير تعزف موسيقى

صاخبة... وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من الحجرات تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمناها وترمى بجزء منه فى الحجرة، وترد عليه الأخريات بزغاريد طويلة جدا، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبًا، وتحاول النساء ومعهن الأطفال والفتيات الصغار السير فوق الحبوب المتناثرة فى كل مكان.

وعند العودة إلى صالة المنزل توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، وتأخذ الفتيات الصغيرات والأطفال الشموع، وبعد ذلك تحمل الصينية ويوضع داخلها النقود(١).

والجدير بالإشارة أن المولود إذا كان بنتاً يشترى الأهل لها قُلَّة... وإذا كان المولود ولدًا يشترون له إبريقا.

وفى ليلة اليوم السابع تُوضع القلة أو الإبريق وبه الماء بجوار المولود وبه شمعة كبيرة مضيئة وحولها عدد من الشموع الصغيرة فى صينية بها ماء(٢)، .... ويوضع فى هذا الماء حبوب من الفول تيمناً به، ويشرب فى اليوم السابع من الإبريق أفراد الأسرة لزيادة الروابط بينهم وبين المولود.

.... ثم توضع فوق القلة أو الإبريق بيضة مسلوقة يأكلها شخص مُسِنٌّ حتى يعيش المولد عمرًا مديداً... وتكحل عيون المولود بالكحل، وذلك حتى تتسع عينه ويقوى بصره...

ومن المستحب فى هذا اليوم تسمية المولود وحَلْق شعره. وعند المغرب يبدأ الاحتفال بإطلاق البخور فى جميع أنحاء المنزل، وتحمل الأم وليدها

(١) فى احتفالات الميلاد والسبوع: زينب عبد الرزاق (مجلة نصف الدنيا، أحد أعدادها الأسبوعية).
(٢) من إحدى معالجات الدكتور سيد عويس للعادات والطقوس التى تناولها فى إحدى كتاباته (بتصرف).

وتدور به فى المنزل، ويسير وراءها الأطفال وهم يحملون الشموع المضيئة ويغنون: «حرجالاتك برجالاتك.. حلقة دهب فى وداناتك»(١). ويردد الأطفال تلك الكلمات حتى تصل الأم إلى صالة المنزل التى يُقام فيها السبوع... ثم يوضع المولود فى «غربال»، وتقوم سيدة بدق «الهون» النحاسى.

وأثناء دق الهون تقوم إحدى السيدات بهز «الغربال»، حيث يعتقد أن دق «الهون» يفيد فى عدم فزع المولود فيما بعد من الأصوات الصاخبة العالية الضوضاء، وأنها وسيلة - أيضا - لإبعاد الأرواح الشريرة منه، كما أن هز «الغربال» مفيد للجهاز الهضمى للمولود، كما يعتقدون أنه ينقى مثلما تنقى الغلة فى الغربال.

ثم تخطو الأم على وليدها وهو داخل «الغربال» سبع مرات(٢)، حيث يعتقد أنه يقى المولود من الإصابة ببعض الأمراض فيما بعد، بعدها ترفع الأم وليدها فى الغربال... وتقوم إحدى السيدات بدحرجة «الغربال» فى المنزل حتى يمشى الطفل فى أوانه...

وبعد ذلك يوزع على الأهل والأصدقاء والأطفال الأكياس المملوءة بالحمص والحلوى، وذلك حسب الحالة الاقتصادية لكل أسرة... ثم يقوم الأهل والأصدقاء بإعطاء المولود «النقوط» وهو عبارة عن نقود.

(١) كلمة «حرجالاتك» مشتقة من حرجل، وهى تعنى برجليك الصغيرتين سوف تعدو وتسير حتى تشب وتكبر، ويردد الأطفال هذه الكلمات وراء السيدات الكبار.

(٢) يلاحظ أن الرقم سبعة له مدلول خاص يتصل بالعقيدة الإسلامية كالطواف حول الكعبة سبع مرات.. والسعى بين الصفا والمروة فى الحج، فضلاً عن استحباب الرقم سبعة بوجه عام.

* الختان وطقوسه[1]:

يعد الختان مناسبة لإعلان الفرح فى الأسرة، وقبل الختان بيوم يرتدى الصبى - إذا كان فوق سن الخامسة - أجمل ثيابه، ويحلى بحلى من الذهب، ويُطاف به فى الطرقات والشوارع وأمامه المنشدون.

وقد جرت العادة أن والد المختون إذا كان ميسورًا خَتَنَ مع ابنه من لم يكن مختوناً من أولاد الحى، ويُشركهم فى الاحتفال.

ويصنع والد المختون وليمة تعرف باسم «الإعذار»، وفيها تُذبح الخراف، وتُوزع مع هبات أخرى على الفقراء.

وكان الحلاقون يتولون مهنة الخَتْن إلى جانب قيامهم بالجراحات الصغرى، ثم مُنعوا بعد ذلك، واختص بهذه العملية أناس يُدْعَوْن «مُطَهِّرِى الأطفال» يمارسونها بإجازة، ثم منع هؤلاء أيضاً لتتم الآن على أيدى أطباء متخصصين.

* * *

* ليلة الحنة:

من عادات الزواج القديمة فى مصر - وما زالت موجودة فى معظم قراها - ما يسمى بـ «ليلة الحنة»... ففى هذا اليوم يُرسل جهاز العروس إلى بيتها فى موكب كبير من العربات «الكارو» التى يحرص أهل العروس على الإكثار منها، فيوضع الأثاث على بضع عربات، ومتعلقات وحاجات بيت الزوجية الأخرى، من مراتب ومخدات وألحفة زاهية الألوان، وأدوات المطبخ وغيرها على عدة عربات أخرى.

(١) الختان هو قطع القلفة، وهى الجلدة التى تغطى حشفة الذكر، ويجرى الختان بعد ثلاثة أيام من ولادة المولود، وقد يجرى بعد أسبوع أو بعد شهر أو أكثر، وقد يتأخر إلى بضع سنوات.

ويطوف الموكب الشوارع والطرقات، وتنطلق الزغاريد مشاركة من الناس فى الفرحة والاحتفال بالعروسين.

وعند وصول الموكب يتم فرش الجهاز على الفور، وترص ملابس العروس فى الدولاب.

... وفى المساء يكون هناك موكب آخر يتمثل فى الفتيات وهن يحملن صوانى الحناء، ويَطُفْنَ بها على ضوء الشموع الموضوعة فيها.

وفى هذا اليوم تقوم «البلانة» أو ما تسمى بـ «الماشطة» بتحنية العروس وصديقاتها المقربات، كما تتحنى بقية النساء والفتيات من الأقارب، وتنطلق الزغاريد ابتهاجاً بتلك الليلة، أما العريس فيقوم أصدقاؤه بتحنيته، كما يحنون هم أيضًا مشاركة منهم للعريس فى فرحه، وكان يحرص على أن يطلى كفه الأيمن تيمناً ببركة الحنة التى تجلب الخير ـ كما كان الاعتقاد شائعًا وقتئذ ـ ثم يُؤخذ «العريس» إلى بيت أحد أصدقائه أو أقاربه، ويُؤْتَى بالحلاق أو ما يسمى بـ «المزين» الذى يقص شعره ويهذبه ويحلق ذهنه، بعدها يأخذ فى الاستحمام.

وأثناء ذلك كله يُقدم «النقوط» الذى يعد فى حقيقة الأمر دَيْنًا فى عنقه واجب السداد إذا حلت مناسبات للآخرين الذين أدوا واجب «النقوط»، وفى الوقت نفسه تقوم البلانة «بإعداد العروس» للزفاف، فتنظف جميع أجزاء جسدها من الشعر الزائد، ثم تقوم بمساعدتها فى الاستحمام، وبعدها تمشط شعرها، وتضع لها الكحل، وتزينها، ثم تلبسها فستان الفرح، وتقدم «النقوط» للبلانة.

ويأتى «العريس» فى زفة مرتدياً «البدلة» إذا كان «أفنديا»، والطربوش والجلابية البلدى واللاَّسَة الحرير إذا كان من أولاد البلد... وتكون هناك

عربة «حنطور» معدة لنقلهما إلى بيتهما الجديد، ويمضى «الحنطور» ووراءه مجموعة أخرى من «الحناطير» فى موكب يخترق الشوارع إلى بيت «العريس» حيث ليلة الفرح.

وفى مكان الفرح يكون «النقرزان»(١) والطبل البلدى فى انتظار العروسين... وبعد أن يجلس العريس وعروسه بعض الوقت مع «المعازيم» يدخلان إلى بيتهما.. وأحيانًا تدخل معهما «البلاَّنة» لإتمام «عملية» الزواج.

وأثناء قيام العريس بتلك العملية يعلو صوت الطبل والزمر والغناء، كما تنطلق الأعيرة النارية فى الهواء.

وفى أحيان أخرى لا تدخل «البلاَّنة» مع العريس والعروس، وتسمى «دخلة عثمانلى»... وهنا تنطلق الزغاريد تعلو الأصوات بأغانى مثل: «قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشى»... و«يا حلوة يا بلحة يا مقمعة، شَرَّفْتِ أعمامك الأربعة»... ويستمر الفرح بعد ذلك إلى وقت متأخر من الليل.

وجدير بالذكر أن تحديد موعد الأعراس فى الأرياف كان يتم فى نهاية جَنْيِ المحاصيل الزراعية، ويكثر فى وقت الخصب، ويكون ذلك فى شهرى أغسطس، وسبتمبر، أو فى شهرى أبريل، ومايو.... وفى بعض المناطق التى تزرع الأرز ويجنى فى هذين الشهرين.

كما كانت الأعراس تتم بوجه عام بعد الانتهاء من العمل الزراعى. أما فى المدن، فلم يكن للأعراس موسم معين، غير أن الناس يكرهون إجراءها فى شهور المحرم، وصفر، وجمادى الأولى، والآخرة، ويستحبون إجراءها

(١) النقرزان: فرقة موسيقية يكون معهم شخص يقوم بألعاب بهلوانية.

فى شهرى ربيع وشوال، وقد جرت العادة أن تكون ليلة الزفاف فى يوم الاثنين أو الجمعة.

وكان يسبق «العُرْسَ» عدة احتفالات، منها أخذ «العروس» إلى الحمَّام، ودعوة قريباتها وصديقاتها وأترابها...

وتتولى تغسيل العروس عاملة فى الحمام تسمى «القيمة» وتمنح مكافأة «بقشيشًا» وتتعالى الزغاريد أثناء ذلك.

ويجرى «العُرْسُ» فى بيت والد «العريس»، أو فى منزل أحد أقربائه أو أصدقائه إذا كان المنزل لا يتسع للمدعوات من النساء، ويؤتى بالمغنيات مع فرقة موسيقى نسائية تعزف تحت إشراف قائدتها التى تسمى «العالمة»... وحين تأتى «العروس» مع أهلها وأقربائها يستقبلها أهل «العريس» وأقرباؤه بالزغاريد وأنغام الموسيقى.

وقد جرت العادة أن ينثر فوق رأسها حبوب الأرز، وكان الميسورون ينثرون النقود الذهبية والفضية(١).

وتحمل المباخر أمام العروس ينبعث منها دخان البخور لطرد الأرواح الشريرة.

ويُعَدُّ للعروسين مكان مرتفع فى ساحة الدار، بحيث يراهما الحضور، ويسمى «منصة» أو «مرتبة».

وتُمد الموائد، وتُقدم أنواع الطعام والحلوى والفاكهة، وتقوم والدة «العريس» وأخواته وعماته وخالاته بدعوة أم «العروس» وأخواتها وأقربائها

(١) حبوب الأرز هنا تيمنا بكثرة البنين، أما النقود فلكى يشتغل الحاضرون بجمع قطعها فتصرف أعين الحساد عن النظر إلى «العروس» حتى لا تصاب بـ «العين».

ومدعواتهن إلى المائدة، ثم يدعى بقية المدعوات على أفواج بحسب مكانتهن.

وفى الطبقة الميسورة يتولى إعدادَ الطعام طبَّاخون، أما غير القادرين فيتجهون لشرائه مصنوعًا.

وتقوم بتزيين العروس وجلوتها(١) امرأة مختصة تسمى بـ «الماشطة» أو «المقينة»(٢) فتأتى بجميع أدوات الزينة، من كحل وأصباغ ودهون..

وبعد أن يتم تزيين العروس تقوم «الماشطة» بإلباسها لباس «العُرْس»، وهو ثوب من قماش أبيض من نسيج الحرير وخيوط مقصبة، وتضع على رأسها تاجًا من الماس أو الزهور الصناعية، وتقلدها الحلى التى أُهديت إليها.

ويقوم بتزيين العريس «الحلاَّق»، بعدها يقوم بالاغتسال وارتداء حلة «العُرْس» الجديدة، ويجرى ذلك باحتفال يُقام فى بيت أحد أصدقاء العريس أو أقربائه، وتسمى ليلة الاحتفال «ليلة التلبية»، فإذا استكمل العريس زينته أخذ الشباب يُقبلونه فرحًا، فى حين يشكه بعضهم بدبابيس شكًا لطيفاً(٣).

ويخرج العريس بعد ذلك فى موكب يحف به الشباب من أصدقائه وأقربائه.

وفى الأعراس الفخمة يتقدم الموكب فرقة موسيقية شعبية، ويقوم بعض الشباب بالمبارزة بالسيوف، ومنهم من يلعب بعصًا غليظة طويلة، وهو يظهر مهارة فى تقليبها بين يديه.

---

(١) أى إظهار محاسنها.

(٢) المقينة: المرأة التى تزين بألوان الزينة للزفاف (انظر لسان العرب مادة قين).

(٣) هناك ما يشبه هذه العادة فى سورية وبلاد المغرب العربى، حيث يوضع دبوس فى الحذاء الأيمن للعروس، ومثله يوضع فى حذاء العريس لطرد الأرواح الشريرة.

ويتقدم الموكب جمل مجلل بحلل الديباج يمتطيه راقص مقنع، يرقص رقصات بارعة، وفى كفه «صناجات» يدقها على أنغام المزمار الذى يعزف عليه رجل يتقدم الجمل، وإلى جانبه يسير شاب يرتدى لباسًا عربيًا تقليديًا، وفى يده سيف يداعب به الراقص فينثنى له.

ويمر الموكب فى أحياء المدينة، ويتوقف فى أسواقها، فيزدحم الناس للفرجة حتى يصل إلى بيت الزوجية الجديد، عندئذ تنطلق عيارات نارية ابتهاجًا، ويودع «العريس» أصدقاءه الذين رافقوا الموكب وشاركوا فيه. ويدخل الدار مع أبيه وإخوته وأقربائه... وتتقدم العروس وحولها أترابها من الصبايا، ومن خلفها صغار يحملون فضل ثوبها، وأمامها والدة «العريس» وخاله وإخوته، وبنات عمه يرقصن.

وتزف «العالمة» العروس بزجل تمتدح به جمالها ومفاتنها، وتتمنى لها الهناء والسعادة.

ويتقدم العريس ومعه أبوه فيمسك بيده ويضعها فى يد عروسه، ويدعى ذلك «مسك اليدين»(١)... وعند عدم وجود الأب يتولى أقرب الأقرباء ذلك... وبعد ذلك ينصرف الجميع لينفرد العريس بعروسه.

*** بعض العادات القديمة للزواج في بعض البلدان العربية:**

* فى سوريا: تقوم الماشطة بتسريح «العروس» وإلباسها ثوب الزفاف.. وفى اليوم التالى يجلس «العريس» فى الساحة ليحلق ويتعطر.

---

(١) يلاحظ أن عقد اليدين تقليد شائع فى كثير من الشعوب، وهو يرمز إلى توثيق عقد الزواج، وأن الزوجين قد صارا يدًا واحدة.

وفى المساء يذهب إلى «العروس» لتزف بين الأهل والأصدقاء، ثم يحضرون لها خميرة من حشائش، فتأخذها «العروس» لتلصقها على الحائط فوق الباب، فإن لصقت فوراً كانت فألاً حسنًا على حياتها الزوجية.

* **وفي الصحراء الغربية بالجزائر:** إذا أُعجب الشاب بفتاة لا يطلبها من أبيها، وإنما يمضى فى توجيه أشعاره إليها، ويتوقف الأمر كله على مدى تجاوبها ورضاها عن هذا الشعر، وإلا اضطر إلى عدم التعرض لها بعد ذلك أبدًا.

* **وفى تونس:** يتم طلب «العروس» من «أهلها بواسطة والدى «العريس»، ولا يعرف الشاب من سيتزوج، ولا تعرف الفتاة من سيكون عريسها... وقبل الزفاف بثلاثة أيام تذهب «العروس» إلى الحمام مرتدية «القسارى» وهو شبيه بالعباءة، وفى ليلة الزفاف ترتدى «العروس» فستان الزفاف التقليدى، وهو «حِرَام» ومن فوقه «بروفوس» أبيض «وطربوش» يغطى الرأس، وعلى وجهها قناع أبيض يسمح لها بالرؤية بدون أن يسمح للعريس برؤية وجه عروسه، ثم يصطحب عروسه إلى بيت الزوجية، وما إن يصلا إلى البيت حتى يقوم «العريس»، ليصلى لله، ويدعو أن تكون زوجته صالحة ذات خَلَفٍ صالح.

* **وفى سيوة بمصر:** ترتبط عادات الزواج بحمَّام عين العرائس الذى تستحم فيه عرسان الواحة ليلة الزفاف، فتذهب قريبات «العريس» إلى منزل «العروس» لتَصْحَبَنْهَا إلى عين العرائس؛ لتستحم بالمياه المباركة، وتذهب بعد ذلك إلى مقام الشيخ «سليمان» لنيل البركة، ثم تعود إلى منزلها، ثم تقوم العروس بارتداء فستان الزفاف الذى صنعته بنفسها، وتصفف شعرها على

شكل ضفائر مرصوصة على الجانبين، ثم تركب «الهودج» الذى يحملها إلى بيت العريس.

* **وفى السودان:** تستمر الاحتفالات أسبوعاً، وتقوم «العروس» لتبدأ فى الرقص ٢٤ رقصة كاملة على إيقاع الأغانى، وهى تتدرب على هذه الرقصات منذ نعومة أظفارها استعدادًا لهذا اليوم.

وفى اليوم السادس يسير العروسان والأصدقاء فى موكب إلى نهر النيل سيرًا على الخضرة، ويغسلون وجوههم منه لِنَيْلِ البركة، وبعد ذلك يعودان إلى منزلهما.

* **وفى الأردن:** قبل الزفاف بسبعة أيام يُقيم أهل «العريس» الاحتفالات بالدبكة والأغانى...

وفى اليوم السابع يقيمون الذبائح والولائم للضيوف... أما أهل «العروس» فيقيمون حفل وداع تجلس فيه «العروس» بثوبها الأبيض وسط الأهل والأقارب... ثم يأتى أهل «العريس» ليزفوها إلى عريسها.

* **وفى الإمارات العربية:** يستمر «العُرْس» ثلاثة أيام: فى اليوم الأول يُقام حفل كبير للنساء، حيث تقوم «العروس» باستعراض جهازها من ذهب وملابس وعطور حتى يشاهده الأقارب...

* وفى الكويت: تبدأ عملية تجميل «العروس» قبل الزفاف بأيام قليلة تتراوح بين أسبوع وثلاثة أيام، فيقوم أهل «العروس» من النساء ومعهن إحدى السيدات المتخصصات فى تجميل وتزيين العرائس، فَيَقُمْنَ بترطيب بشرة العروس «بالحل» أى بزيت السمسم، أو زيت «الناريل» أى زيت جوز الهند، خلال يومين متتاليين... ثم يقمن فى اليوم الثالث بتدليك جسم

العروس «بهردة» أى بطحينة، ليكتسب الجلد لمعاناً جميلاً ونعومة، كما يدهنون الرأس بالحناء «والحل» وبعد ذلك تستحم العروس.

وتُخطط اليدان بالحناء فى خطوط زخرفية، وكذلك القدمان، وتستمر عملية تزيين «العروس» لتكون أبهى من كل حسناء، وتتزين بالحلى من فضة وذهب، وأحجار كريمة، كالكهرمان والفيروز والماس واللؤلؤ، وعلى الرأس توضع «الهامة» وهى من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة، أما العريس فيحرص على أن يبدو فى أجمل هيئة(١).

*** عادات الزواج المتوارثة قديماً:**

ـ فستان الفرح: لم ينتشر اللون الأبيض فى فساتين الزفاف إلا فى أوائل القرن التاسع عشر.

وكان فستان الفرح حتى القرن الثامن عشر يشمل جميع الألوان، كالأحمر، والبرتقالى، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والبنفسجى، حتى إن بعض العرائس كن يرتدين أحياناً فساتين من اللون الرمادى أو اللون الأسود.

ـ عادة جلوس طفل فى حجر العروس، ونثر بعض أنواع الحبوب أو الثمار على العروسين يشير إلى ولادة «العروس» لطفل ذكر.

ـ رش الملح أو بعض قطع النقود أو الحلوى أثناء زفة العروس يمنع العين والحسد... كما أن وضع المصحف فوق رأس العروس وقت القران يمنع العين والحسد أيضًا.

---

(١) هذه المقتطفات من بحث أجرى فى جامعة كلورادو الأمريكية لمحاولة التعرف على عادات وتقاليد الزواج فى المجتمع العربى ـ وقد أشارت إليها صحيفة الأهرام فى ٢٤/ ٦/ ٨٨.

ـ عادة أكل العروسين معاً فى صحن واحد، أو بواسطة ملعقة واحدة، أو من طعام واحد فى يوم الخطوبة أو يوم الزفاف، معناه خلق المحبة بين الزوجين.

ـ عادة قرص العروس فى «ركبتيها» ليلة زفافها يشير إلى الاعتقاد بأن هذا الإجراء يؤدى إلى إسراع زواج من تقرصها فى ليلة الزفاف..

كما أن من التقاليد أن تحرص الفتيات اللاتى لم يتزوجن بعد على تناول بقايا طعام «العروس»، أو يشربن فى الإناء الذى شربت منه، أو يتبخرن بالبخور الذى تبخرت به، وكلها معتقدات ترتبط بأن الجو الذى يحيط بالعروسين يكون مملوءًا بالخير، ومن يَعِشْ فيه أو يلامسه يَحْظَ بما حَظِيَ به العروسان.

ـ الموسيقى كانت جزءًا من طقوس الزواج، ويقصد منها حماية الزوجين، وطرد الأرواح الشريرة، وإدخال البهجة والسرور على العروسين والمدعوين.

ـ كانت العادة تقضى بأن تدخل «العروس» بيت الزوجية بقدمها اليمنى قبل اليسرى، ويعنى ذلك حياة زوجية موفقة... أو أن يحمل العريس عروسه أول مرة تدخل فيها منزل الزوجية حتى لا تخطو عتبة المنزل، مما يعنى حمايتها من الانفصال.

*** عادات وتقاليد قديمة:**

ـ فى فاس بالمغرب ـ وبالتحديد فى المدينة القديمة منها ـ كانت طريقة السلام والتحية غريبة... فعندما يدق باب المنزل يستقبل صاحب الدار زائره بوضع يده على كتفه مُرَحِّباً به.

ـ كانت عند كثير من قبائل السودان فى الماضى عادة غريبة، فلكى تحمى بكارة البنت من العبث فلا بد أن يُخَاطَ «فرجها» وهى طفلة(١). وعند الزواج تقدم العروس أول هدية لعريسها تكون عبارة عن سكين ليفض العريس بها بكارتها.

ـ فى منطقة «أبها» بالمملكة العربية السعودية كان من العادات العربية الأصيلة أن يُغلق الباب على الضيف فى غرفته ومعه طعامه الشهى حتى يأكل على سجيته بدون أن يزعجه أحد، وأنه يجب عليه المكوث ثلاثة أيام على الأقل فى ضيافة أهل الدار(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة السائدة فى تلك المنطقة هى العربية الفصحى، ولكن اللهجة التى يتحدثون بها هى لهجة حميرية قديمة أصبحت مقصورة على أفراد القبائل الرُّحَّل، يتحدثون بها فيما بينهم، ويستعملون فيها (أم) بدل (أل) التعريفية فيقولون مثلا:

«أمجمل» أى الجمل... و«أمثور» أى الثور... و«أمحصن» أى الحصن..... وهكذا.

كما أنهم يستبدلون بالكاف الشين للمفرد المؤنث كقولهم:

«ماحلش» بدلا من: ما حالك؟

وكان بعضهم يتشاءم من رقم (٧) فإذا وصل فى العَدِّ إلى هذا الرقم قال: سمحة(٣)

* * *

(١) يلاحظ أن الحكومة قد استنكرت هذه العادة مرارًا وحاولت منعها، ولكن احتجاج الناس جعل الحكومة تتساهل فى اتخاذ الإجراءات اللازمة.

(٢) كانت من العادات القديمة التى اندثرت من المدن لتبقى فى بعض القرى منها.

(٣) مجلة العربى الكويتية، يوليو ١٩٦٩ (بتصرف).